الأسواق التجارية في بيروت وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية

د. حسان حلاق

تعتبر الأسواق التجارية في بيروت المحروسة من العناصر الأساسية التي ساهمت في تطور بيروت الاقتصادي والاجتماعي، بل انعكس هذا التطور على مختلف المناطق اللبنانية وكان لانتشار الأسواق في باطن بيروت والمساجد والزوايا والكنائس والأديرة والخانات والثكنات والسرايات والخستة خانات، والحمامات والمدارس والأفران والسجون والأبراج ومرفأ بيروت وسواها من الملامح الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية والعسكرية، كان لها الأثر المباشر في انتشار وتنوع السكان وفي تطور العلاقات الإسلامية ـ المسيحية. ذلك أن الأسواق وتلك الملامح كانت مواقع التقاء بين الطوائف في بيروت ولبنان، ومواقع التقاء مع العناصر الأجنبية من تجار وزوار وسياح.

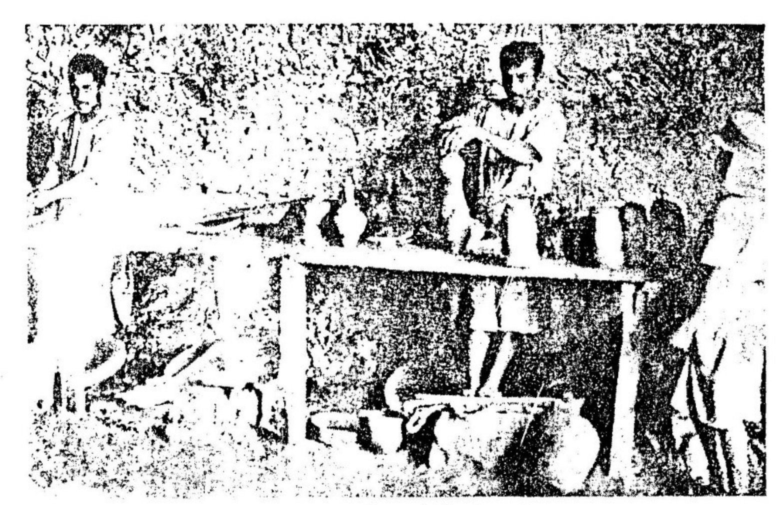
وكانت تلف هذه الأسواق والملامح العامة السور الذي كان يتخلله سبعة ابواب هي: بوابة يعقوب، باب الدركة، باب السراي، باب الدباغة، باب السلسلة، باب السمطية، باب إدريس. أما باب ابو النصر فهو من الأبواب المستحدثة في السور. وقد اختار البيارتة لمدينتهم سبعة ابواب لتفاؤلهم لهذا العدد ولورود العدد سبعة في القرآن الكريم في أكثر من موقع(*).

وتؤكد المصادر التاريخية والوثائق المعاصرة أن السور والأبواب السبعة كانت لا تزال عاملة في القرن التاسع عشر، وبقيت آثار بعضها في القرن العشرين. وقد صدرت إرادة من القائد المصري إبراهيم باشا الذي سيطر على بلاد الشام بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠، بإقفال ابواب بيروت حفاظاً على سكانها وامنها والتجارة فيها، وقد أعلم بذلك القناصل الأجانب.

والواقع فإن تطور مدينة بيروت خارج السور، إنما جاء نتيجة متطلبات اجتماعية واقتصادية وسكانية وكان هذا التطور نتيجة لجهود تجارها وسكانها من المسلمين والمسيحيين، مع ما يتميز به ميناؤها من مميزات تؤمن الرسو والأمان للسفن، ومع ما تتميز به أسواقها من تنوع في البضائع والسلع المحلية والمستوردة.

وتبرز أهمية الأسواق في بيروت العثمانية من خلال الأسواق المتخصصة، وتلك كانت ميزة العصر. من بين هذه الأسواق:

سوق الأساكفة، سوق البازركان، سوق البياطرة، سوق البوابجية، سوق ساحة الخبز، سوق الخضار، سوق العطارين، سوق الحدادين، سوق القطن، سوق النجارين، سوق الصاغة، سوق الشبقجية، سوق الشعارين، سوق القزاز، سوق اللحامين، سوق التجار، سوق القطايف، سوق المنجدين، سوق الخياطين، سوق التجار، سوق الساحة، سوق الخبز، سوق



معمل للفواخرة في بيروت

الخمـامير، سـوق القهوة، سـوق الدلالـين، سوق الخراطين وسواها.

وبـرزت في بـيروت المحـروسـة أسـواق أخرى تحمل أسمـاء العائـلات التي تمتلك عقاراتها أو محلاتها منها:

سوق إياس، سـوق باب إدريس، سـوق سرسق، سوق الجميل، سوق سيور، سـوق درب الطويلة، سوق الأمير يونس، سوق أبو النصر، سـوق التيان، سـوق بيهم (السوق الجديد) وسـواه، وبرزت أسـواق بأسمـاء الطوائف منها:

سـوق حـارة الإسـلام، سـوق حـارة النصـارى، سـوق حـارة اليهـود، سـوق الكنيسـة، سوق الأرمن، سـوق الافـرنـج، والسوق الشرعي وسواه.

ومن الأسواق الهامة التي كان يلتقي به المسلمـون والمسيحيـون «سـوق المـراد» الشهير في باطن بيروت العثمانية. والحقيقة فـإن بيروت شهـدت، بـالإضـافـة إلى تلـك الأسواق، العديـد من المهن والحرف منهـا على سبيل المثال: المجلخ، المبيض، السقـا، السـواس والشمـاع، المنجـد، العـربجي، العقـاد، القبـاني، الفـاخـوري، الحـلاق، القاطرجي، المكـاري، وسواهـا. ومما كـان يميـز بيروت بعض الاشتغـالات الموسمية مثل المسحراتي المرتبط عمله بشهر رمضان المبارك وقيامه بهذا النشاط الرمضاني كان واجبـاً «شرعياً» أكثـر مما كـان حـرفـة أو مهنة.

وكان للمهن أثر واضـح في تغير أسمـاء بعض العـائـلات البـيروتيـة، حيث لقبـوا بأسماء المهن التي عملوا بها. ومن الأهمية بمكـان القـول إنـه كـان لكـل سـوق من أسـواق بيروت المحـروسـة «شيخـه» وهـو بمثابة نقيب لأصحـاب المهنة. وقـد أشارت سجـلات المحكمـة الشرعيـة في بـيروت إلى أسماء شيوخ الحرف والمهن.

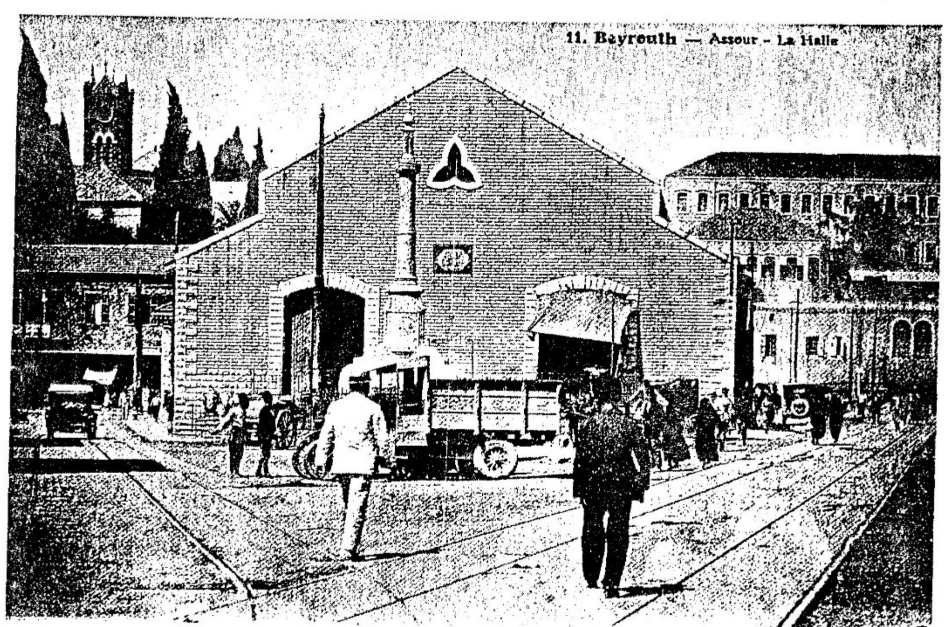
وكان يعرف بـاسم «شيخ العقـادين» أو «شيـخ النجـارين» أو «شيـخ الحـدادين» وهكذا بالإضافة إلى أن السجلات والوثائق أشـارت إلى منصـب «عمـدة التجـار المعتبـرين» وهو بمثـابة نقيب التجـار كمـا تبـين بأن في أسـواق بيروت العثمـانية لقب «بـازار بـاشي» أي نقيب السـوق أو رئيس السوق.

ويرتبط بهذه الأسواق بعض الساحـات المتخصصـة منها: سـاحة الخبـز، ساحـة القمح، ساحة السمك، ساحة الـزبيب. كما يرتبط بأسواق بيروت العثمانية القيساريات (القيصريـات) وهي أسـواق مسقـوفـة، تمارس فيها عمليات البيع والشراء منها على سبيل المثال:

قيسـارية الأمـير سليمـان أبـو اللمـع، قيسارية الشيخ شاهـين تلحوق، قيسـارية الحرير، قيسارية الأمير سلمان الشهـابي، قيسـارية الصـاغة، قيسـارية العطـارين، قيسارية الأمير عبد السلام العماد، وكلهـا في باطن بيروت. ويلاحظ من تسمياتهـا أنها تعـود بتـواريخهـا إلى العهـدين المعني والشهابي.

هذا وقد ارتبط مرفأ بيروت ارتباطاً وثيقاً بالأسواق التجـارية والمهنيـة والحرفيـة في بـاطن المدينـة، وسـاهم المـرفـأ في تنشيط الحـركـة التجـاريـة وحـركـة الاستـيراد والتصدير، واستقطـاب العناصر اللبنـانية والشامية والمغربية والإفرنجية للتجـارة مع بيروت.

ونتيجة ذلك توسع المرفأ، واستناداً، إلى سجـلات المحكمة الشرعيـة في بيروت وكتب الرحـالـة والوثـائق المعاصرة، فقـد نشأ إلى جانبه مرافىء أو موانىء متخصصـة منها، مينـاء الأرز، ميناء الخشب، مينـاء القمح، ميناء البطيخ، مينـاء البصل... كمـا ارتبط بـالمرفـأ بالأسـواق وبالحـركة التجـاريـة، الخانات التي كانت بمثـابة فنادق تمـركزت بالقرب من مـرفـأ بـيروت لتسهيل استقبـال التجـار الأجانب. من بـين هذه الخـانات ـ الفنادق:



ساحة السور ويظهر فيها الهول ـ الهال (السوق المسقوف) ويظهر وراءه السراي والثكنات

خان أنطون بك، خان البـ ـير، خان الحرير، خان حمزة وسلوم، خان الدركة (خان قرانوح)، خان سعيد آغا، خان الصاغة، الخان القديم، خان الملاحة، خان الوحوش، خان شيخ المكارية، خان العريس وكنفاني، خان الشونة، خان الأروام، خان فخري بك، خان تابت أو خان السيد وسواها من الخانات.

هذا وقد استأثر المرفأ بعدد كبير من المؤسسات الخاصة والرسمية منها: مبنى البنك العثماني ومبنى البريد ومبنى أورزدي باك، ومبنى الشرطة، والمقهى الكبير وأوتيل أوروبا الشهير، ومبنى الجمرك، وقلعة بيروت وقبله السراي الصغير والجبانات.

وكان البريد يأتي من مختلف المناطق العربية والأوروبية ولكل دولة بريدها الخاص لا سيما البريد الأجنبي، وقد أشار الرحالة الروسي «كريمسكي» من خلال رسائله المعروفة إلى ذلك بقوله: «من ينتظر رسالة يأتي بنفسه إلى مبنى البريد قرب المرفأ الذي ينقسم إلى مراكز يختص كل منها بالبريد الوارد من بلد أجنبي معين. هناك مركز للبريد الوارد من النمسا وآخر من فرنسا أو روسيا أو انكلترا...».

وهذه الإشارات تدل على تزايد الوجود الأجنبي في بيروت العثمانية، وعلى تزايد الإقبال عليها لأسباب سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية.

وتعود أهمية الأسواق التجارية وأهمية مرفأ بيروت، أنه كان مرفأ لدمشق، بل لمختلف المناطق السورية الداخلية، ومرفأ لمناطق جبل لبنان والداخل اللبناني، وبواسطة هذا المرفأ وبواسطة الأسواق البيروتية كانت تصدر البضائع والمنتجات البيروتية واللبنانية والأوروبية. وأصبح لمرفأ بيروت أهمية كبرى بعد أن ارتبطت بيروت بخطوط سكة الحديد التي تصلها بمناطق عثمانية أخرى، وذلك بواسطة ربط المدينة بدمشق وذلك منذ عام ١٨٩٥ م.



تعليم الأطفال مهنة النجارة عند الآباء اليسوعيين في بيروت العثمانية

إضافة إلى أن بيروت باتت قاعدة ومركزاً لولاية بيروت منذ عام ١٨٨٨ م.

وهكذا يلاحظ بأن الأسواق وما ارتبط بها من نشاطات متنوعة، إنما ادّت إلى تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية بشكل أساسي. وبالرغم من أن الكثيرين يركزون على دور الأسواق الاقتصادية غير أن للأسواق اهمية أخرى تكمن في ان دورها يقوم أيضاً ويؤدي إلى تعميق العلاقات الإنسانية بين اللبنانيين. وكانت لها آثار سياسية نتيجة لتبادل الأراء السياسية حول مختلف الأمور وكانت ملتقى للطوائف في الأعياد والمناسبات الرسمية والدينية والوطنية. فالأسواق كانت ولا تزال وستبقى أداة اتصال وتواصل بين اللبنانيين لا يمكن الطعن في اهميتها.

ومن يطلع على تاريخ الجمعيات السياسية والاجتماعية والأدبية التي قامت في بيروت منذ العهد العثماني إنما يدرك تماماً أن تأسيسها كان في باطن بيروت في هذا السوق أو ذاك. ومنها على سبيل المثال لا الحصر «جمعية بيروت الإصلاحية» التي تأسست في أوائل عام ١٩١٣، وعقدت أولى اجتماعاتها في محلة باب إدريس وكانت شرارة الثورة العربية والسبب الرئيسي في عقد أول مؤتمر عربي في التاريخ المعاصر، أعني به «المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣».

وهكذا يلاحظ بأن الأسواق في باطن بيروت قامت بدور أساسي في جذب الطوائف اللبنانية وأثرت بدرجة أولى في تعايشهم وتعاملهم مع بعضهم البعض. ومن هنا يدرك الدارس أهمية الأسواق في التعايش والعيش المشترك بين اللبنانيين.

وكانت المباني الحكومية تقوم بدور بارز في استمرار الصلات وتعميقها بين اللبنانيين. من بين هذه المباني: بلدية بيروت، الشرطة، المالية، الدوائر العقارية (الطابو)، البريد والبرق، شركة مياه بيروت، شركة الكهرباء، مباني البرلمان والسرايات الحكومية وسواها من مبانٍ رسمية.

والحقيقة فإن التمازج السكاني الذي حدث نتيجة للاتصالات والعلاقات من خلال الأسواق وبقية الملامح العمرانية، ادّى إلى توحيد أو تقريب في العادات والتقاليد السائدة في بيروت العثمانية فالمعروف أن الشريعة الإسلامية أثرت في الأنماط المعمارية وفي هندسة المباني، ذلك أن القرآن الكريم نهى عن كشف العورات

والتجسس على المنازل وطلب من المؤمنين والمؤمنات غض الأبصار لهذا فإن الحاكم الشرعي في بيروت كان يراقب الأبنية، ويمنع من كان منها يكشف على الجيران لذا فإن مختلف البيروتيين من المسلمين والمسيحيين كانوا يحرصون على بناء بيوت وغرف لا تطل على بيوت وغرف الجيران ولا يطل الجيران عليهم وعلى مقر نسائهم وإذا حدثت مخالفات شرعية مرتبطة بالنظام المعماري فقد اجازت الشريعة رفع الدعاوى لإنهاء الحالات الشاذة. وتشير وثائق سجلات المحكمة الشرعية إلى دعاوى مسلمين ضد مسلمين، ودعاوى مسيحيين ضد مسيحيين، لأن هذا أو ذاك فتح نافذة غير شرعية تطل على نسائه او بناته. وهذا ما يؤكد بأن الكثير من العادات والتقاليد باتت واحدة عند المسلمين والمسيحيين، وذلك بفعل الاحتكاك والتلاقي في إطار الأسواق والمؤسسات الأخرى.

وقد أشار الرحالة محمد بيرم التونسي في كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار» ما شاهده حول العيش الإسلامي - المسيحي في أسواق بيروت نحو عام ١٨٨٠ قائلاً:

«إن أهالي بيروت، وإن كانوا قسمين: مسلمين ونصارى، لكنهم جميعاً في غاية الالفة بعضهم مع بعض، وعوائدهم جميعاً واحدة حتى في محاسن اخلاقهم، وقد شاهدت من فضلاء القسمين ما أشكرهم عليه في محاسن الأخلاق والفرح بالضيف...».

والحقيقة فإن الأسواق التجارية التي تحدثنا عنها هي أسواق لا حراك فيها إن لم يحركها البيروتي واللبناني، لهذا لا بدّ من الحديث بعض الشيء عن البيارتة الذين أعطوا الحياة والنشاط لهذه الأسواق وقد مدح الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي في كتابه «نفحة البشام في رحلة الشام» أهل بيروت عندما وصف جده ونشاطهم من أجل تأمين معاشهم. ومما قاله: «والله إني لأشكر صنيع أهل هذه البلاد في السهر على اتخاذ الوسائل للمعيشة والاستعداد. لا يترك صغيرهم ولا كبيرهم النبش في الارض... ولاشتغال أهل هذه المدينة بأشغالهم التجارية من الصباح إلى المساء ما بين كونه في دكان أو حاصل يبيع ويشتري او في الميناء يستخرج بضاعته المجلوبة إليه من اوروبا أو بلاد أخرى... فليس لهم وقت فراغ فلا تراهم يكثرون من السهرات الليلية في الحظوظ والشهوات النفسية... وفيها غاية السهولة في تناول البضاعات التجارية والتحارير والرسائل بواسطة البوستات والوابورات الأجنبية فالسفارة فيها والأخبار يومية لا كغيرها من البلاد السورية فهذه مزية لها وأي مزية».



وأكد عبد الرحمن بك سامي في كتابه «القول الحق في بيروت ودمشق» عام ١٨٩٠ من ان «أهل بيروت ذوو همة في الأشغال يقومون صباحاً قبل الشمس، ويشتغلون طول النهار بلا ملل، كل في عمله. ولا تكاد ترى بينهم باطلاً يتردد بلا عمل إلّا فيما ندر... وكلهم مجدون في أعمالهم، ومواظبون عليها... ولولا ذلك الاجتهاد لضرب الفقر أطنابه فيما بينهم ويرى المنتقد أن كلًّا من الأهالي مكتف بعمله غير ساع إلى الإيقاع بالآخر، ولذلك ترى المزاحمة قليلة بينهم وكلهم على أتم الوفاق كأنهم قد ادركوا أن لكل إنسان وظيفة في العالم، وهذه الوظائف مجموعة معاً تؤلف الهيئة الاجتماعية».

وممن مدح أهل بيروت وتحدث عن مزاياهم وأخلاقهم الحميدة ونشاطهم، الأمير محمد علي باشا حفيد محمد علي باشا الكبير - الذي زار بيروت عام ١٩٠٨، ودوّن مشاهداته في كتابه «الرحلة الشامية».

وفي ضوء ذلك، يتبين بأن هذا الطراز من الشخصية البيروتية هي التي أوجدت الأسواق والملامح العمرانية والاقتصادية، والتي كان لها الفضل في تطور الحياة مجتمعة في بيروت في مختلف مراحلها.

ويمكن أن نؤكد بأن إعادة إعمار الأسواق التجارية يجب أن تكون أهدافه على النحو التالي:

١ - جعل بيروت مدينة استقطاب لجميع اللبنانيين تتمركز فيها الخدمات الحكومية والخاصة.

٢ - إعادة العمل بنظام الأسواق المتخصصة في باطن بيروت على غرار العواصم التاريخية في العالم مع الأخذ بعين الاعتبار التمسك ببعض أسماء الأسواق والشوارع التي لا تتناقض أسماؤها مع مبدأ الاستقلال الوطني.

٣ - إحياء المباني والمؤسسات الأثرية والتراثية والحفاظ على طابعها القديم، مثل السرايات الحكومية ومباني البلدية والمساجد والكنائس والزوايا والمباني الأثرية، والتوفيق بين أصالة الماضي وحداثة العصر.

٤ - تقليص دور الأسواق التي تسمى طائفية أو مناطقية تحت ستار اللامركزية «لأن استمرار هذه الأسواق يجعل من الطائفية والمناطقية بالنسبة للأجيال الناشئة أمراً طبيعياً وعادياً. فلا بد من إحياء دور الأسواق الوطنية، بهدف التمازج السكاني وتطوير عملية الاتصالات والعلاقات الاجتماعية بين اللبنانين.

٥ - إن عملية العيش المشترك التي تجسدها الأسواق المختلطة في باطن بيروت هي أهم من كل اعتبار، لذلك فإن خطط إعادة الإعمار والبناء فيها يجب أن تكون من الأولويات لدى كل المسؤولين وقد أثبتت الأحداث حتى الآن أن الرئيس رفيق الحريري - وبالرغم من انشغالاته الكثيرة - مهتم اهتماماً بالغاً بالملامح التراثية والتاريخية الموجودة في باطن بيروت.

إن الأسواق التجارية ليست قاعدة للالتقاء الوطني فحسب، وإنما ثبت انها قاعدة للانتماء الوطني، وانه لا يمكن لمدينة او عاصمة أن تحيا بدون التقاء وبدون انتماء.

(*) جاء في القرآن الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ سورة الإسراء الآية ٤٤.

وجاء في القرآن الكريم ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ اي اتيناك سبع آيات تثنى وتكرر قراءتها في الصلاة، سورة الحجر، الآية ٨٧. وفي قوله تعالى: ﴿الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾ سورة نوح الآية ١٥، وفي قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ «سورة البقرة» الآية ٢٦١. وورد أيضاً في القرآن الكريم: «سبع سنبلات وسبع بقرات، وسبع عجاف، وسبع سنين وسبع شداد وسبع طرائق، وسبع ليال، وسبعاً، وسبعة، وسبعون ذراعاً»...